هل تنهض حركات اليسار من جديد في منطقتنا؟

سمير مرقص
كاتب (مصر)

حظيت دراسة الحركات الدينية السياسية فى منطقتنا العربية بالإهتمام العلمى على مدى عقود فى الغرب وعندنا.. من حيث بنيتها وتوجهاتها وأهدافها ومشروعاتها. وكذلك الليبرالية الجديدة التى صاغت نخبتها التوجهات الإقتصادية والتحولات السياسية النسبية فى المنطقة منذ الثمانينيات. المفارقة أن الحضور الإجتماعى والسياسى لكل من الحركات الدينية والليبرالية كان على حساب تراجع اليسار فى العالم العربى.. بيد أن الإهتمام بدراسة أفق تجدد حركة اليسار العربى بدأت فى البزوغ مرة أخرى فى السنوات الأخيرة.. وربما يكون من المفيد إلقاء الضوء على بعض هذه الدراسات..

شرطان لتجديد اليسار

فى مطلع هذا العام أصدر كريم مروة القيادى السياسى الماركسى اللبنانى المخضرم، كتابه المهم «نحو نهضة جديدة لليسار فى العالم العربى»، عن دار الساقى ببيروت.. حيث يحاول المؤلف أن يقدم فى هذا الكتاب «مشروعاً لنهضة جديدة لليسار فى العالم العربى، بعد الإنكسارات والتراجعات الكبرى التى شهدها هذا اليسار فى العقود الأخيرة..».

وحيث يقترح جملة من «المبادئ والأفكار التى يراها ضرورية لخروج اليسار من

أزمته الراهنة» بغية استخلاص العناصر الأساسية التى يمكن لليسار الجديد أن يستند إليها فى تحديد انطلاقته الجديدة وأهدافه ووسائل نضاله«.. وللوصول لهذا الهدف وضع شرطين، الأول إعمال »القراءة النقدية الموضوعية لأحداث التاريخ القديمة والجديدة،.. لأن ذلك من شأنه امتلاك المعرفة التى تمكن من إدراك الأسباب الموضوعية المتصلة بإرادة البشر وبمستوى وعيهم، أو معرفة جوانب من تلك الأسباب الموضوعية التى حالت حتى هذه اللحظة التاريخية التى نحن فيها دون تمكن البشرية من تحقيق أحلامها العريقة والدائمة فى الحرية والتقدم والعدالة الإجتماعية مجتمعة ومتحدة».. أما الشرط الثانى الذى يضعه كريم مروة فهو القيام «بقراءة غير أيديولوجية للمتغيرات والتحولات التى تجرى فى العالم المعاصر..».

وفى ضوء هذين الشرطين يؤكد مروة حقيقة «أن ثمة تواصلا بين أحداث التاريخ الكبرى،والأفكار التى تولد من رحمها، أو تسهم فى صنعها، وأن الجديد من الأحداث الكبرى، ومن الأفكار المتصلة بها إنما يولد من ذلك القديم، لكن هذا الوليد الجديد لا يجوز له، ولا يستطيع موضوعيا، أن ينكر، أو أن يتنصل لصلة النسب التى تربطه بالتاريخ السابق على ولادته وبالأفكار التى كانت سائدة فيه باسم التقدم بمعانيه المتعددة التى يرمز إليها،علمياً ومعرفياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وإنسانياً».. فى هذا السياق يضع مروة التاريخ كمدخل لفهم الحاضر وإدراك المستقبل من جهة.. كذلك للتأكيد على وحدة التجربة الإنسانية..

اليسار: الفهم التاريخى وإدراك التحولات المعاصرة

ينطلق الكتاب من المقارنة بين ثورة العبيد التى قادها سبارتاكوس فى الإمبراطورية الرومانية وبين ثورة الزنج فى التاريخ العربى الإسلامى.. ويقول : إن فشلهما كان بسبب استخدام الثوريين لنفس الأساليب والطرق التى استخدمها

الجلادون الذين ثاروا عليهم وكأنهم أعادوا إنتاج الظلم.. ويحيل مروة إلى الدراسة المميزة التى كتبها طه حسين فى مجلة الكاتب المصرى فى أربعينيات القرن الماضى والتى أشار فيها إلى «أهمية الثورتين، وإلى الخلل داخلهما الذى أسهم، إلى جانب عوامل خارجية، فى فشلهما»..

وانطلاقاً من هذا المثال يضع المؤلف بعض المبادئ لكيفية الدراسة الموضوعية من أجل فهم ما جرى عبر المسيرة الإنسانية إلى يومنا هذا، والأخذ بالسياق الموضوعى الذى جرت فيه كل ثورة وحدث فارق وأنتجت فيه كل فكرة على مدى التاريخ.. ويفرق مروة فى هذا الإطار، بين الأديان فى صورتها الثورية وبين حملة الشعارات الدينية من أدعياء الإنتماء للأديان كونهم باتوا نموذجا للحركات المعادية للحرية وللتقدم والمعادية للإنسان ولسعادته»..

والخلاصة، أن استحضار مجمل تلك الأحداث التاريخية وما جرى من ثورات وما انطلق من أفكار منادية بالحرية وبالتقدم للبشرية، يعكس تواصل وعدم انقطاع نضال البشرية من أجل نظام أفضل لحياتها، بيد أن هناك حاجة لفهمها بعناية.. وفى نفس الوقت ضرورة فهم ما طرأ من تحولات فى العالم المعاصر..

وفى هذا المقام، يحلل كريم مروة، الأزمة المالية الحالية فى ضوء الأزمات المتتالية للرأسمالية ويخلص إلى أن «رأس المال المعولم» نعم متوحش ولكنه كون مع تطوره اتجاها موضوعياً يقود إلى وحدة للعالم ينبغى الإقرار بها.. ولكن لابد أيضاً من تصحيح التعاطى معها بالقبول بإيجابياتها والتفاعل معها وبمواجهة ما يأتى منها من مظالم وذلك بتجاوز المواجهة من خلال استنفار الهويات الخاصة لأنها ستؤدى إلى نتائج غير التى نريدها.. كما لابد من توطيد مواقع الدولة الوطنية.. والإنخراط فى الإتحادات الإقليمية.. وأخيراً إنجاز برامج يسارية فى ضوء الواقع..

الحاجة إلى دراسات من نوع جديد

وعن بلداننا فى الداخل، اجتهد مروة، فى تقديم اقتراحات تحدد مهمات الحاضر والمستقبل.. ولعل من أبرز هذه المهمات: المعرفة الدقيقة للمتغيرات التى حصلت وتحصل فى مجتمعاتنا.. وهنا يتفق مروة مع روجر أوين (أكاديمى بريطانى الأصل يعمل بجامعة هارفارد الأمريكية ومتخصص فى قضايا الشرق الأوسط ومُلم بشئونه)، فى دراسته المعنونة: «جدول أعمال جديد لحركات اليسار العربية» (التى نشرها منذ سنتين)، حيث وضع مجموعة من المداخل الأساسية التى يجب أن تنطلق منها حركات اليسار العربية والتى سوف يترتب عليها مجموعة من المهام وذلك كما يلى:

ضرورة اعتراف اليسار بالتغيرات الجذرية التى شهدتها اقتصاداتها ومجتمعاتها منذ آخر مرة بحث فيها اليسار العربى فى هذه المسائل بالتفصيل.

ففى الحالة المصرية على سبيل المثال يشير أوين إلى ما يلى:

لا يمكن الإبقاء على التصنيف الذى يفيد أن الطبقات الإجتماعية الدنيا فى مصر تتألف فقط من فئتى العمال والفلاحين القديمتين، فعلى الأرجح يقول أوين :إن نسبة عمال المصانع من القوى العاملة الصناعية باتت اليوم أقل بكثير من تلك التى كانت قائمة منذ خمسين عاماً. كذلك لم تعد فئة الفلاحين تنطبق على معظم العاملين فى المجال الزراعى.. وهذا الأمر سوف يفيد بحسب مروة فى توسيع القاعدة السياسية والإجتماعية للقوى التى تنتمى إلى اليسار، أو التى تعتبر اليسار ممثلا لمصالحها..

لابد من الأخذ فى الإعتبار أن الدراسات السابقة قد تجاهلت مساحات كبيرة من البلاد خارج القاهرة.

فى ضوء هذه المداخل يؤكد أوين أن نجاح أى مشروع يسارى مشروط بمعالجة

هذه المشاكل مباشرة، من خلال ما يلى:

إجراء الكثير من الدراسات التحليلية السياسية والإجتماعية الجدية، ليس فقط لتقييم التأثيرات التى تنتج عن التغييرات بل أيضاً لفهم ديناميكيتها والطرق التى ستساهم فيها هذه التطورات فى تغيير الإقتصاد السياسى للبلدان المعنية فى العقود القادمة.

تأليف مجموعات بحث منظمة، أو إنشاء معاهد بحث لمساندة الحكومة فى عملها كمجموعة «بريتش فابيان سوسايتى» التى تم إنشاؤها فى أوائل القرن العشرين.

المشروع الجديد لليسار

ويحدد كريم مروة، فى نهاية رؤيته المستقبلية ٢٠ قضية لابد أن يتضمنها المشروع الجديد لليسار العربى وذلك على التوالى:

(١) بناء الدول.

(٢) المجتمع المدنى بمؤسساته المختلفة وهو هنا يميز بين المجتمع المدنى والمجتمع الأهلى.

(٣) المسألة الوطنية.

(٤) شروط تحقيق التقدم الإقتصادى لإخراج بلداننا من تخلفها المزمن.

(٥) الموارد الطبيعية وتوظيفها الأفضل.

(٦) التنمية الإجتماعية وشروط تحققها الأمثل.

(٧) الضمانات الإجتماعية.

(٨) الثقافة والمعرفة.

(٩) البحث العلمى.

(١٠) الإهتمام بكل ما يتصل بالتراث الثقافى والإجتماعى.

(١١) الإهتمام بالشباب، تنشئة وتعليما وعملا.

(١٢) حقوق المرأة.

(١٣) النضال ضد التطرف.

(١٤) الإهتمام بالبيئة.

(١٥) النضال ضد أنظمة الإستبداد.

(١٦) المسألة الفلسطينية.

(١٧) مسألة الأقليات فى الوطن العربى.

(١٨) توطيد علاقات التكامل العربى.

(١٩) العلاقة بالعالم.

(٢٠) العلاقة بين قوى التغيير فى الوطن العربى.

لعل من أهم ما طرحه كريم مروة فى رؤيته هو استعادة نمط من التفكير نُزع انتزاعاً بفعل ثقافة السوق التى أعلت من التفكير البراجماتى العملى على حساب التفكير التحليلى الذى يأخذ فى الإعتبار تحليل موازين القوى وصراعاتها وتناقضاتها.. ويعيد إلى الديناميكية الإجتماعية اعتبارها.. إنه نموذج جدير بالتفاعل معه فى لحظة نتطلع فيها إلى المستقبل..

نشر في جريدة الشروق المصرية